بين الحقيقة والخيال

— ٦ —

الموسيقا فى الأدب العربى

«عرض ونقد»

للأستاذ عبد اللطيف المغربى

المفتش بوزارة المعارف

وفى أوبة من رحلة طويلة تستغرق بياض النهار، جلست فى مكان من القطار فريدا، أنفى عن النفس وحشة العزلة ووعثاء السفر بضروب من الوسائل: فتارة أردد النظر فى كتاب، فأروض الذهن فى شعاب من التفكير وأودية من الخيال، وأهيم فى آفاق روحانية ندية أجدى على النفس من نغمة الطيب الذكى، وأروح من بسمة الأمل الوضاء — وتارة أطوى الكتاب وأصبح فى عالم الذكريات، وهو عالم يتملك فى مثل سرعة الوهم إلى شاطىء الماضى الخضم، فيقفك على صور غابرة من الحياة عابسة وباسمة، تفعم نفسك بضروب من اليأس الممض أو الارتياح العميق — وحينا أسرح الطرف من نافذة القطار فى مروج خضراء ذات وهاد ونجاد، وأشجار وأنهار، وغياض ورياض، وقرى ودساكر، وظلال وارفة، وزروع ناضرة، وبين كل أولئك صنوف من الحيوان منثورة، وطوائف من الناس غادية ورائحة: منهم الطروب المرح

الذى يرسل غناءه الساذج حرا طليقا فى جوف ذلك الفضاء الجميل ، فيزيده رواء على روائه ، وكأنه يشارك الطيور المنتقلة الضاربة فى كل مذهب من هذا الفضاء فى شدوها ؛ شكراً لله على ماوهب من نعمة الحياة ، وقوة الخصب ، ومنابع الخير ، وفيوض الرحمة والبركة ، والجمال الساحر ، والحسن الأخاذ فى ذلك الريف المصرى القديم — ومنهم البائس المعتر الصامت كأبى الهول ، قد خطت السنون وتتابع المحن على وجهه سطورا ناطقة بما يحمل من أعباء ثقيلة أنهكت قواه ، وذهبت ببشره وأمله ، فهو صامت مستكين ، يرمقك بعينين ساجيتين تعرف فيهما طول الصبر والأناة ، وقوة الإيمان والرضا بقضاء الله وقدره .

ولقد حانت منى النفاتة عارضة والقطار مسرع فى طريقه ، فرأيت طائرا يجارى القطار فى سرعة وجهد ، فحينا يبلغ مستوى النافذة ويصفق بجناحيه على زجاجها ، وحينا ينال منه الإعياء فيتخلف ، ولكنى كنت غير آبه لما أرى ، فقد قيد سمعى وبصرى وحسى ما أنا فيه من وحدة ووحشة ، ولما أدرك القطار المحطة حفل المكان برجال تلوح عليهم سمات الفضل ، وشارات الثراء والنبل ، فطفق بعضهم يتحدث إلى بعض فى كثير من الغبطة والبهجة ، وأنا صامت ممسك عن الخوض معهم فى فنون الحديث الذى يخصب ويجدب ، ويسمو ويهبط — وفى الحق أنى أنست بالقوم وعددت ذلك من الفرص المواتية أستعين بها على قضاء يومى الطويل ، فإن للوحدة معان حائرة تغمر النفس ، وتلقى عليها ظلالا من الهدوء والانقباض والاستكانة والتفكير المتتابع ، ولقاء الناس والتفرج بحديثهم مما يقشع هذه الظلال ، ويرسل النفس على صفائها ، ويعيد إليها مألوفها من مرح ونشاط .

ولقد أثار انتباهى رجل فى المجلس آثر الصمت وجعل يدير فى الحاضرين عينين براقتين ، يشع منهما نور الذكاء والفطنة ، فهبته ووقع فى نفسى الإجلال

له ، وحرت فى إنصاته للحديث وترفعه عن المضى فيه . وودت أن يخرج عن صمته فأرى قدرا من كياسته وفضله وثقافته — وطال بى الانتظار لأمره حتى تفتحت آفاق جديدة للنقاش دفعتنى إلى مجاذبة القوم أطراف الحديث . والرجل الصموت ملح فى صمته مسترسل فى تحفظه ، ولما حمى وطيس الجدل وطغا النقاش ألفيت منه تحفزا إلى دخول المعركة ، وما لبث غير قليل حتى رأيته يعالج الحديث بصوت أجش لاعهد لى به من قبل فى أناة وصدق منطق واستقامة فكر ، مما حفز القوم إلى الاحتفاء به والإقبال عليه . وتنقل الكلام حتى انتهت دورته إلى فأدليت برأى ، فما كان من الرجل إلا اعتدال فى مجلسه وتقبض للهجوم وانطلاق فى الحديث وتحامل شديد فى جرأة وصلابة . فزايلنى ما كنت أضمرت له فى نفسى من تقدير وإجلال ، وعجبت لهذه المفاجأة الطارئة التى غيرت نظام الحديث ، وأبحت لنفسى أن ألقى هذا العدوان بشىء من المعارضة والزياد الحسن عن الرأى ، ولكن ذلك لم يجد نفعا فى وقف تلك الحملة الشديدة التى شنها ذلك المعارض اللسن علىّ . فزدت فى نقاشى حدة واقتحمت سياج الهيبة بيننا حتى بدت الخصومة واضحة قوية ، وانتهى الحديث إلى غايته ثم انقطع . ولذت بالصمت والصبر الجميل على ماتالنى فى هذا اليوم الذى كنت أرجو معينا عليه ، فوجدت معينا له على إرهاقى وإيلامى ، وساد المكان صمت طويل رائع لما انتهى إليه الحديث من جفوة وتقاطع . وكأن نجوى النفوس سفير بين القلوب يحثها على التزام الهدوء والسكوت . فلا سبيل إلى الألفة والوئام .

وكان القطار قد بلغ بنا محطا جديدا فكان مما رجوته أن يفارقنى هذا الرجل الذى أثار غضبى ، ولكن ارادة الله الغالبة . فينصرف الناس جميعا ويبقى الرجل.

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا مايشاء

ففزعت إلى كتابى أتعالج به ، وهذا الجليس يرمقنى من حين إلى حين بنظرة

وادعة لاأثر فيها للغضب ولا الجفوة . فرابنى من نفسى لددها فى الخصومة وتسامحه . وإسفافها إلى مستوى الغرائز الانسانية من غضب ونقمة ، وإعراض وجموح ، وتساميه عن كل أولئك وأخذه بالخلق الحسن مما يندر أن يكون منهجا لإنسان . فعدت إلى إكبار الرجل ورضت نفسى على الخطة المثلى الجامعة لخلال الخير والبر ليكون لى حظ من ذلك السمو الذى رأيته .

وماهى إلا لحظة حتى بدأ الرجل يعتذر عما فرط منه فى كثير من الأسف والخجل بصوت هادىء عذب ، ولاحت على ثغره ابتسامة مشرقة دلت على دخيلة نفسه الصافية . فذكرت أنى أعرف الصوت وصاحبه ، وكأنه علم هذا منى فرنا إلى يتحسس ماتجيش به نفسى ثم قال : إن لى من حرمة الصداقة وسالف التعارف ماهو خليق أن يطمعنى فى رضا صديق وعطفه إذا بدرت منى بادرة كدرت صفو المودة . ولم أقصد بما لاقيتك به من تحوير لصوتى وإغراق فى نقاشى وانحراف عن طريق — سوى إرهاف حسك ، وإيقاظ فكرك . وطالما أعجبت بتفكيرك ومنطقك إذا غضبت للحق ، وصلت فى ميدان النقاش فلم أتمالك نفسى من الدهشة والطرب أن صحت « أأنت صديق العصفور ؟ » فقال : « نعم » فقلت : وماجاء بك فى مثل هذا اليوم ؟ فقال : إن لقبيلتنا رحلة إلى هذه البقاع فى زمن الحصاد ، وكنت على مقربة من القطار فلما لمحتك أحببت أن أحظى بلقائك ومبادلتك الرأى ، فقد طال شوقى إلى حديثك . فشكرت له حسن عنايته بى . وبدأنا الحوار

العصفور — أعجبنى ماقد سقته فى مقالك السابق وسررت من دحضك بعض المظالم التى لحقت بالأدب العربى ، وأود أن تزيدنى من هذا النوع فإنه طريف مفيد .

أنا : من هذه المظالم مايعاب على الأدب العربى من الموسيقا الشائعة فى نسجه ، وأن ذلك من الزخرف والصناعة التى يراد بها التأثير فى النفوس

بوسائل مصطنعة ، فالأديب العربي يؤثر في الفكر بصناعته وموسيقاه . على حين أن الأديب اليوناني واللاتيني يؤثر بوساطة الجمال الخالص والفكرة القوية المتزنة — والمراد بالموسيقا في الأدب الائتلاف والانسجام في صوغ الكلام وتأليفه على أوضاع حسنة تكسبه جرسا ورنينا في الآذان ، فيجد السامع لذلك من الخفة والروعة مايجده سامع النغم الموسيقي من النشوة والطرب .

ونحن لا ننكر الموسيقا في أدبنا واحتفاءه بها والحاجة في الإغراق فيها ، والذي ننكره ونعجب منه أن تعد من عيوبه وأسباب قصوره عن غيره من الآداب العالمية — وهذا أشبه بازدرائك للجميل لأنه جمع أسباب الجمال وأن تأثيره بهذه الأسباب في النفوس منقصة له . وهذا غريب .

إن هذه اللغة مطواعة ذات خصائص ميزها الله بها على سائر اللغات ، ولقد جعلت من محاسنها تلك الأوضاع الموسيقية لتزيدها قوة على قوة في التأثير . وروح الأدب — العاطفة — التي يزيدها الإيقاع يقظة واحتفالا وقوة ، وهل كان الشعر بموازينه وقوافيه إلا ضربا من الموسيقا يراد به إلهاب العاطفة والحماسة ، كما يراد بالطبول والمزامير تتقدم الجيوش الزاحفة إلى ميادين الوغى ، إذكاء نار الحماسة فيهم ، وإثارة العاطفة إلى أقصى حدودها ، حتى تفيض بها قلوبهم فيندفعوا إلى حياض الموت باسمين .

وليست اللغات الراقية للأمم مجردة من الموسيقا فلكل لغة موسيقاها . فلم عابوا علينا ولم يعيبوا عليهم ؟ وإن كانوا قد عابوا علينا احتفالنا بالموسيقا في أدبنا فذلك لطواعية لغتنا وثروتها اللفظية ، وابتهاج أفئدتنا الشرقية بهذا الضرب من الجمال ، واللغة مقياس الذوق لكل أمة ، ومرآة تطبع عليها صور أمزجتها وأهوائها ، ولا مناص لها أن تحيط بخلجات أفكارهم وترصد نزوات أذواقها وعواطفها وإلا لم يكتب لها الخلود .

العصفور : جميل منك ياصديقي أن تثير هذا البحث فإني إليه جد مرتاح

لطرافته عندى ، وأرجو أن تزيدنى بيانا توضح لى به الطريق إلى صوغ الكلام موسيقيا وتقدر لى تأثير الموسيقا فى الفكرة الأدبية قوة أو ضعفا ، فذلك الطلب لاعلم لى به قبل اليوم .

أنا : ليس للموسيقا فى الأدب طريق معبد مألوف إذا سلكه الكاتب أو الشاعر انتهى به إلى كلام موسيقى ضربة لازب ، فليس لها مقاييس ولا حدود تضبطها ، وإنما هى أمر وجدانى مرجعه الذوق الناضج والأذن الموسيقية النقادة .

ويعين طول المرانة والدربة الطويلة على تربية هذا الذوق الأدبى ، ويستعان على الموسيقا فى الأدب بأمور عامة تقريبية كالوزن والقافية فى الشعر ، والفواصل وتقارب الفقر فى السجع وزيادة بعض الحروف أو إبدالها بما هو أخف منها ، وقد يخالف بالكلمة أحيانا قياسها لتلائم كلمة أخرى فى الأسلوب ، ولحروف الكلمة الواحدة أوضاع خاصة من هذه الأوضاع مايكون موسيقى التأليف والترتيب ، ومنها مايحدث تنافرا ونبوا . وهذا الشأن تراه فى الكلمة تضمها إلى الأخرى ، فأحيانا ترى وضعا موسيقيا عاليا يأتيك عفوا عن طريق الحظ والتوفيق ، وأنت لاتعرف السبيل إلى اقتناصه ، كالصياد يرزقه وأنت على شاطىء البحر فتهش له ، وأحيانا ترى وضعا جافيا لاترتاح إليه أذنك كأرذل مايخرج إليك فى الصيد من البحر ، وبحسب ترتيب حروف الكلمة فى ذاتها وترتيبها مع غيرها ينشأ جمال الأسلوب أو قيمته ، ومدار الأمر فى موسيقية العبارة راجع إلى ضبط النموجات الصوتية أو تقريبها والملاءمة بينها على قدر الإمكان ، وليس لذلك قانون ولا نظام معروف ، ولا بأس هنا بإيراد كلمة للأستاذ « لاسل آبر كرمبي » فى هذا الموقف من كتابه قواعد النقد الأدبى المترجم إلى العربية ، لتلقى وضحا على مايراد من الموسيقية اللفظية وتأثيرها فى العاطفة قال : « إن الكلمات تشتمل على شيئين : معان وأصوات . والمعنى والصوت كلاهما مرتبط بالآخر ارتباطا لايقبل التفرقة . ولكن كلا منهما قابل لأن تنظر فيه على حدة

وكل منهما يمكن تقسيمه إلى قسمين فمن حيث المعنى نرى أولا أن لكل جملة معناها بحسب تركيبها المنطبق على قواعد النحو والصرف وهذا هو هيكل الجملة الذى تتمثل فيه الفكرة المجردة التى يراد وصفها .

ولكن هناك ناحية أخرى لمعانى الألفاظ . ذلك أن كل كلمة ذات معنى قد يكون لها بمفردها — مستقلة عن نحو الجملة وصرفها — تأثير خاص فى الخيال يتوقف على القرائن والموضوع ، فإن معنى كلمة من الكلمات ليس بالأمر اليسير السهل . والمعنى الذى نجده فى معاجم اللغة ماهو إلا النواة التى يتجمع حولها طائفة من المعانى الثانوية . . .

كذلك نرى أن كل كلمة إنما يعبر عنها بوساطة أصوات حروف الكلمة ، ولكن من الممكن أن يكون لهذه الأصوات فوق هذا دلالتها الخاصة بها ، فأما أولا الأصوات المقطعية الخاصة بكل حرف ساكن أو متحرك فى كل كلمة من الكلمات ، وهذه يمكن بترتيبها على طراز خاص وبتكرار بعض الأصوات أن يتألف منها ذلك النظام المسمى بالروى أو القافية . كذلك قد يراعى فى الألفاظ ناحية أدق وأخفى من هذه ، وهى أن يكون بين أصواتها وبين الموضوع ملاءمة بحيث يكون فيها تقليد للشىء الموصوف أو وحى إلى الخاطر يصعب تحديده ، ولكنه محسوس . وهذه الخاصية للكلمات ينظر فيها إلى كل كلمة على حدة وتأثير أصواتها . ولكن هناك ناحية أخرى لتأثير الكلمات ، وهى التى ينظر فيها للكلمات متتالية متعاقبة . وهذا هو مايعبر عنه بالانسجام أو موسيقا اللفظ « rythm » فهنا لا ينظر إلى الأصوات المقطعية ونوعها بل إلى تموجات الأصوات وإلى مقدارها فى عدة جمل . وهذا الاختلاف فى المقدار قد يكون راجعا إلى اختلاف فى قوة الصوت وضعفه أو فى طوله وقصره أو فى ارتفاعه وانخفاضه . والتموجات الموسيقية عبارة عن تعاقب كل هذه الاختلافات الصوتية أو بعضها بطريقة جلية واضحة .

وهذه الموسيقا اللفظية هى بلا شك أهم وسائل الانتفاع بالأصوات فى فن الأدب . لأن هذا الانسجام هو أكبر عامل فى الايحاء بذلك الجزء من العاطفة أو الشعور » .

وفى هذا الحديث ترى إشارة إلى الموسيقا فى الكلمة وفى الأسلوب، ولا تجد فيه نظاما معينا ولا مقاييس محدودة للموسيقا كما قلنا . وإنما هو كلام عام لأن الموسيقا اللفظية فى الأدب فى كل اللغات ليست مما يحد بأنظمة ومقاييس هندسية كالموسيقا الغنائية .

ويتضح من هذا الكلام أيضا أن الموسيقا أكبر عامل فى إيقاظ العاطفة والشعور .

وعندى أن الموسيقا اللفظية أكبر عون للفكرة الأدبية على الوضوح والتأثير فى الأفئدة ، فهى جمال يزيدها قوة كالصورة الزيتية ذات الألوان المؤتلفة تراها فتعجب بها وترتاح إليها ، ولو اقتصر فيها على الخطوط الأولى الساذجة وحرمت تلك الألوان الفاتنة ما كان لها ذلك التأثير .

ولقد يعلو الفيلسوف الانجليزى العظيم كارليل إلى أفق أسمى فى فهم الموسيقا الأدبية ؛ إذ يراها فى صور مختلفة مما يحيط به ، ويميل إلى أنها تقع فى جملة شريفة المعنى وهو بحث طريف من الخير أن نورده باختصار ليكون فيه متعة للقارئين ، وبصر بألوان جديدة فى الموسيقا الأدبية قال : « أما أنا فإنى أجد معنى جما فى التعريف القديم للشعر . وهو أنه الكلام الموزون المودع شيئا من الموسيقا حتى لهو ضرب من الغناء — وحقا لو اضطر الانسان إلى إعطاء تعريف للشعر لما كان متجاوزا ذلك التعريف القديم .

فإذا كان نظمك موسيقيا لا فى اللفظ فقط بل فى اللب والمادة ، وفى جميع الأفكار والمعانى والنظام والنسق فهو شعر وإلا فلا — والمعنى الموسيقى هو : ما إذا خرج من ذهن نفذ إلى لباب الشىء وأدرك مكنون سره ، أعنى النغمة

الكافية فى جوفه ، أعنى مايسقسر فى ضمير ذلك الشىء من موسيقا الائتلاف والوئام.. ولقد يمكننا القول بأن لباب كل شىء موسيقى ، أعنى إذا بدا للناس بدا فى منطق موسيقى أى بدا فى صوت الغناء . وإنى أرى معنى الغناء عويصا عميقا إذ أين ذلك الذى يستطيع أن يصف لنا تأثير الغناء باللسان ؟ ، والغناء ضرب من الكلام المستحيل النطق والمتناهى العمق الذى يذهب بنا إلى شواطىء المجهول فيتركنا ننظر برهة فى ذلك البحر . . .

ثم اذكروا أيضا أن كل كلام صادر عن انفعال فإنه يلبس بطبيعته ثوبا موسيقيا .

بل أرى كلام الغضبان صوتا من الغناء ، وهكذا كل لباب وصميم وشىء عميق فهو غناء . بل يظهر لى أن الغناء هو لبابنا الجوهرى » . ثم يقول بعد ذلك

« وقد قال كولريج فى بعض كتاباته : إن كل جملة موسيقية التركيب يجرى فى أثناء لفظها حلو النغم ، فلا بد أن تكون ذات معنى جليل شريف ؛ لأنه مازال أبدا بين الجسم والروح « اللفظ والمعنى » ألفة وشبه ، والشعر القديم الجيد شعر هوميروس مثلا كله غناء ، بل كل شعر حر غناء ، وإن كل شعر لا يصلح أن يتغنى به فما هو بشعر ، ولكنه قطعة نثر فصلت فى لفظ طنان ، فيه عقوق لقواعد النحو وأذى ومصاب على القراء » هذه النظرة العالية الفلسفية تسمو بقارئها إلى معان أبعد مما يتبادر إلى الذهن من الموسيقا اللفظية ، وفيها نواح جديدة عميقة النظر أوحت بها إلى هذا الفيلسوف فلسفته وروحه الممتزجة بحب مظاهر الكون وأسراره — والذى لانقر كولريج عليه « أن كل جملة موسيقية التركيب يجرى فى أثناء لفظها حلو النغم فلا بد أن تكون ذات معنى جليل شريف » فأحيانا نرى العبارة موسيقية ومعناها ضئيل . وقديما استحسنوا نسج الأبيات الآتية ومافيها من موسيقا لفظية ، وعدوا معناها سخيفا وهى:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

ولقد امتاز شعر البارودى بالموسيقا اللفظية القوية ، وكثير من معانيه قريب أو مسبوق إليه . وكان المعرى يقول فى شعر ابن هانىء الأندلسى « ما أشبهه إلا برحى تطحن قرونا » ومعنى هذا أن أساليبه فيها فخامة وقوة جرس موسيقية ، ولكن معانيه غير رائعة كما يرى المعرى ، وإذا كان المعرى قد أخذ على ابن هانىء ضعف معانيه وأقر له بموسيقا اللفظ فما أحرانا فى هذا الموقف أن نقر المعرى بقوة معانيه فى شعره وضعف الموسيقا فى كثير من أقواله.

ومن مقال للشاعر الكبير بول فاليرى عضو المجمع الفرنسى، عربه الأديب عبد الرحمن صدقى « والكلام يمكن أن يكون منطقيا عامرا بالمعنى، ولكنه خلو من الايقاع خلو من الوزن ، وقد يكون عذب الورود على السمع وهو سخف ولغو ، وقد يكون واضحا وفارغا ، غامضا ولذيذا »

ويجمل بى فى هذا المقام أن أذكر لك شيئا بهذا الموضوع من مقال للأستاذ أحمد أمين ، يزعم فيه أن الأدب الجاهلى جناية على الأدب العربى ، ولا يعنينا التعرض لهذا الرأى فى جميع نواحيه فلندعه فى تطرفه وغرابته بدعا بين الآراء ، ولننقل رأى الأستاذ فيما يمس الموسيقا فى الأدب العربى، فقد قال فى توضيح الآثار السيئة التى لحقت الأدب العربى من الأدب الجاهلى فى الشكل: « فمن ناحية الشكل قيد الشعر بقيود الوزن والقافية كما رسمها الشعر الجاهلى ، فالبحور الجاهلية هى البحور التى سار عليها الشعر العربى كله إلى الآن إلا أشياء قليلة ، وكذلك القافية ، مع أن البحور ليست إلا أوزانا ، والأوزان ليست موسيقا ، والموسيقا تختلف باختلاف العصور ، فكما أن الغناء الجاهلى لا يناسبنا، فكذلك كان يجب أن تكون الأوزان والقافية مسايرة للزمن ، وأن تحكم كل أمة عربية أذنها الموسيقية فى الأوزان الشعرية التى تناسبها والتى لا تناسبها ،

سواء وافق ذلك الأوزان الجاهلية وقوافيها أو خالفها، أما أن نخضع آذاننا للأوزان الجاهلية والقافية الجاهلية فحسب، فنوع من السجن لا يليق بأمة راقية تتحرر من القيود الثقيلة، وقد جنى هذا القيد علينا جنايات كبرى تتصل بالموضوع، فالتقيد بالقافية حرمنا من الملاحم الطويلة، وحرمنا من القصص الطويلة الممتعة؛ لأن اللغة مهما غنيت بالمترادفات لا تستطيع أن تقدم للشاعر مئات الكلمات على روى واحد وعلى حرف واحد، خصوصا بعد أن قيدوا الشاعر أيضا بألا يعيد الكلمة إلا على مسافات بعيدة».

وقد يكون من البر بلغتنا والوفاء لها قبل البدء فى نقد هذه الفكرة أن نعمد إلى بعض العبارات فنضعها بين قوسين مثل «سواء وافق ذلك الأوزان الجاهلية وقوافيها أو خالفها» و«جنايات كبرى» و«على روى واحد وعلى حرف واحد» أما الفكرة فإنا نراها غير موفقة فى نواح كثيرة، فالموسيقا التى تجرى عليها البحور العربية لا يقدح فى حسنها وملاءمتها قدمها، فليس كل قديم غير ملائم، وبقاؤها على قدمها إلى الآن ومرور دهر طويل عليها، دليل على صلاحيتها وملاءمتها للأذواق، وإلا ما كتب لها هذا البقاء الطويل — والدعوة إلى أن تحكم كل أمة أذنها الموسيقية فى الأوزان الشعرية التى تناسبها والتى لا تناسبها، فتح لباب واسع من الفرقة والاختلاف فى الذوق، وقضاء على صلة محكمة تربط بين الآذان الشرقية العربية جميعا، فتطرب كل أمة وتهتز، وتجيش صدورها بالأماني والأحلام العذبة، كلما شدا على دوحة العربية شاد فى آفاق الأرض بهذا الطراز من الموسيقا. وبهذا وبغيره نحفظ للوحدة العربية كيانها. وإذا أبحنا لأنفسنا أن نبدل فى موسيقا الشعر وهى مظهر من مظاهر لغتنا لأن آذاننا لها حكمها فى وقتها، فلماذا لا نبيح غدا تغيير قواعد الإعراب والتحرر منها لأن حناجرنا فى وقتها لها حكمها أيضا وهى غير حناجر العرب الذين ارتضوا هذا الإعراب؟ إن المسألة ليست مسألة منطق وترتيب نتائج

لنقدم على هدم أمر من الأمور العظيمة ، بل علينا أن نتدبر الحقائق مجردة من زخرف المنطق ونتعرف آثارها السيئة فى رفق وهوادة فإن ذلك بنا أجمل. ثم ماهو المقياس الذى يراه الأستاذ للموسيقا الشعرية الجديدة ؟ ألا يرى معى أن فتح هذا الباب مدعاة إلى الخلط فى الأوزان والفوضى فيها ، فيأتى كل دعى فى الأدب بأوزان سخيفة ويتعصب لها ويناضل عنها ، فنعيش فى حرب كلامية طاحنة تفسد علينا أذواقنا ، وتقضى على بقية التراث العربى الكريم . ويقينى أن هذا لايرضى الأستاذ صاحب الدعوة ، فلندع أوزاننا كما هى ، فهى سر باح به الزمان ، فظل بقوته وخصبه صالحا لكل مكان .

أما الحملة على القافية وأنها حرمتنا الملاحم الطويلة فهذه الدعوة نصيبها من الحق كنصيب سابقتها ، فإن الملاحم لايشترط فيها اتحاد القافية ، وأقرب دليل على صلاحية العربية لها الملحمتان العظيمتان (العمرية والعلوية) اللتان صاغهما الشاعران العظيمان المرحومان حافظ وعبد المطلب ، فقد جعلا لكل غرض فيهما قافية ، وبذلك فتحا فتحا جديدا ، ومهدا سبيلا لكل من أراد الإحسان فى الملاحم ، فنحن لم نحرم الملاحم وأمثلتها بين أيدينا صارخة ، ولم تقصر قوافينا عنها — وفوق هذا فشطور الرجز مجال واسع للملاحم وأمثالها وليس له غاية ، فقد درج شعراؤنا فى أراجيزهم الهائلة على النسج من مشطور الرجز كأبى العتاهية فى أرجوزته فى الزهد وكابن المعتز وابن عبد ربه فى أرجوزتيهما التاريختين وهما معروفتان .

— ٢ —

العصفور : بارك الله فيك . لقد أرضيت الحق وقمت بالنصفة فى نقدك ، وأطلعتنى على كثير معجب مما لم أكن أعلم . وأرجو أن تنال حظا من الراحة ، فقد عز علينا أن تجمع بين مشقتى السفر والبحث العلمى — ثم تقفنى على الغرض من حملات المجددين على القافية بإسهاب . فقد سمعت عن هذا الموضوع فيما مضى

كلاما يسرنى أن أرى له إيضاحا وتفصيلا .

أنا — لعلك تذكر أيها الطائر الأديب أننا أثرنا هذا البحث فى مقالنا الأول ، وقد ذكرت لك إذ ذاك إن أول من استحدث هذه الطريقة المرحوم الشاعر جميل صدقى الزهاوى . وأسمعتك شيئا من شعره على هذه الطريقة . وقد قويت الدعوة إلى هذا المذهب بعد ذلك ، ومال إليه المجددون ، ودعا إليه المجددون : إما فى قوة وصراحة ، وإما فى إيماء وتحفظ — وقام معارضون لهؤلاء الداعين ، فثار الجدل حول هذه الفكرة ولا تزال حجج الداعين إليها غير قوية ، على الرغم مما عرضوه على الناس من صور لهذا الرأى ، وتدور أدلتهم حول ضيق الشعر العربى بالتزام القافية وقصوره عن تصوير المعانى وصوغ الملاحم والقصص وقد تقدم فى هذا المقام دفع ماقالوا .

وقد صاغ الزهاوى أول قصيدة من هذا الطراز فى مستهل القرن العشرين ونشرتها له صحيفة المؤيد غير القصيدة التى سمعت بعض أبياتها وعرض بعض الكتاب قطعا من هذا النوع . منها قطعة مترجمة فى صورة نثرية مرة وصورة من الشعر المرسل مرة أخرى ، وهى من شعر شكسبير زعيم هذا الطراز من الشعر فى رواية عطيل . ولا بأس بأن أذكر لك قليلا من هذه القطعة فى حالتيها النثرية والشعرية

النثر

ياجو : حسن السمعة للرجل والمرأة — ياسيدى العزيز — أثمن جوهرة من حلى النفس . من يسرق كيس نقودى يسرق شيئا زريا كان لى وأصبح له ، وكان قبلنا لألوف آخرين . أما الذى يسرق حسن سمعتى فيختلس شيئا لايغنيه ويجعلنى فقيرا جهد الفقر . . .

الشعر المرسل

ياجو: شرف الانسان أغلى سيدى
من سواد القلب هذا يستوى
فيه من كانوا ذكورا أو إناثا
إنما من يسرق مالى إنما
نال منى تافها غير خطير
إنما المال متاع هين
فلقد كان معى ثم مضى
ليديه بعد حين مثلما
كان قبل الآن عبد الالوف
إنما سالب عرضى نال ما
ليس يغنيه وقد أفقرنى

ولست أرى تعليلا عن صوغ هذه القطعة بهذه الطريقة من الشعر البادى لك فى ضعفه وهزاله . وقد ذكر معنى هذه القطعة قول شاعرنا العربى حسان ابن ثابت رضى الله عنه :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه لابارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال إن أودى فأكسبه ولست للعرض أن أودى بمحتال

وعرض أيضا الاستاذ الكاتب قطعة أخرى ترجمة فى صورة نثرية وصورة شعر مرسل لقصة من وضع شكسبير تمثيل رثاء انطونيوس لقيصر، فلا داعى إلى إيراد شىء منها اكتفاء بما تقدم .

وظهرت كاتبة متحمسة لهذا المذهب من الشعر تدعو إليه فى صدق وقوة وعزيمة ، وتضرب صفحا عن نقاشها فلا سبيل إلى اقناعها كما يتبين من بعض أقوالها التى نعرضها عليك ، لتعرف الحكمة فى العدول عن معارضتها، ومقدار

ماترمى إليه من تجديد فى الشعر . قالت:

« والغريب أنه بينما نتناقش فى الشعر المرسل يتناقش الأدباء الإمريكيون فى الشعر الحديث الذى لاوزن له ولا قافية — ليطمئن قرائى فسيفنى عمرى فى الدعوة إلى الشعر المرسل . فهل يتيسر لى أن أدعو إلى هذا الشعر الحديث الذى لاأستسيغه الآن ؟ ولكنى لاأعرف، فقدأستسيغه غدا » وقدأبدت هذه الكاتبة دعوتها بنسج قصيدة لها على هذا النوع من الشعر عنوانها « ذوالفأس » ومن يدرى لعلها تدعو إلى شعر لاوزن له أيضا ، لأنها قد تستسيغ ذلك غدا كما تقول . ولنذكر من قصيدتها قولها فى المطلع :

متكئا على الفأس فى انكسار منحنى الظهر من الهموم
ينظر فى الأرض بلا انتهاء فليس نحوها إلا المصير

وقولها فى النهاية :

ياسادة العبيد والأراضى كيف لقاء الرب يوم الدين
يوم مثوله أمام الله بعد سكون الساعى والسنين

ونحن نضن أن نعرض لهذه القصيدة بوصف فليست تستحق شيئا من العناية . وبذلك تعلم ياصديق العصفور نشأة فكرة الشعر المرسل وتدرجها فى ظل الزمان ، فصاحبها الزهاوى ،وكل من كتب بعده داعيا إليها تبع له.

العصفور — لقد وضح الحق واستقامت الحجة ، وإذا كنت قد علمت صاحب هذه الدعوة ومرقف الداعين بعده منه — فقد علمت شيئا جديدا أيضا خلص إلى من ثنايا الكلام : وهو أن هذه الدعوة وليدة المحاكاة للأدب الغربى ، فإن المجددين لما وجدوا شعرا مرسلا لشكسبير وغيره من الشعراء الغربيين ، أرادوا إحداث مثله فى العربية ، وقد لمحت من حديثك أنهم يجدون للأدباء الإمريكيين شعرا غير موزون كما يقولون . وأرى أن الدعوة إلى هذه البدعة الحديثة ستجد لها أنصارا بين المجددين وحينئذ تقع الفوضى فى الأدب العربى لاقدر الله !!

والآن ياصديقى أرجو أن تسمعنى فى ختام هذا البحث الطريف ، شيئا من النثر والنظم يمثل إلى الموسيقا فى الأدب العربى ، فأكون لك من الشاكرين أنا — يسرنى أن أجيب صديقى إلى ماطلب وإنى لسائق إليه من ذلك مايرضيه . فمن ذلك قول الشريف الرضى وقد حلق شعره بمنى فرأى فيه شيبا ، وموسيقاه قوية رنانة . استمع إليه إذ يقول :

لا يبعـــدن الله برد شبيبة ألقيته بمنى ورحت سليبا
شعر صحبت به الشباب غرانقا والعيش مخضر الجناب رطيبا
بعد الثلاثين انقراض شبيبة عجبا أميم لقد رأيت عجيبا
فاليوم أطلب الهـــوى متكلفا حصرا وألقى الغانيات مريبا
إما بكيت على الشباب فإنه قد كان عهدى بالشباب قريبا
لو كان يرجع ميت بتفجع وجوى شققت على الشباب جيوبا
ولئن حننت إلى منى من بعدها فلقد دفنت بها الغـــداة حبيبا

ومن هذا النوع من قول البارودى فى حرب كريد

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان وهفا السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب فوق المتالع والربا بجران
لاتستبين العـــين فى ظلمائه إلا اشتعـــال أسنة المران
نسرى به ما بين لجـــة فتنة تسمو غواربها على الطوفان
فى كل مرباة وكـــل ثنية تهدار سامرة وعزف قيان
تستن عادية ويصهل أجرد وتصيح أجراس ويهتف عان

ويغلب أن يكون هذا النوع القوى الجرس من الموسيقا فى البحور الكامل والوافر والمتقارب ، ومن الموسيقا الهادئة الوادعة المتزنة قول الوزير ابن الزيات يرثى زوجه وحال ابنه الصغير بعدها:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تنسكبان

رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليـــل يبتجيان
وبات وحيدا فى الفراش تجنه بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحيانى إن بكيت فإنما أداوى بهذا الدمع ما تريان
فهبنى عزمت الصبر عنها لأننى جليد فمن بالصبر لابن ثمان؟
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة ولا يأتسى بالناس فى الحدثان
فلم أر كالأقدار كيف تصيبنى ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى
أعينى إن لم تسعد اليوم عبرتى فبؤسى إذاً مافى غد تعـــدان

ويغلب أن يكون هذا النوع الهادىء الوقور المؤثر فى البحر الطويل، ومن الموسيقا الفائرة قول أبى العلاء المعرى:

يغيبنى فى الترب من هو كاره إذا لم يغيبنى كريه الروائح
ومن يتوقى أن يجاور أعظما كأعظم تلك الهالكات الطرائح
ومن شر أخلاق الأنيس وفعلهم خوار النواعى والتدام النوائح
وأصفح عن ذنب الصديق وغيره لسكنای بيت الحق بين الصفائح

وعندى أن سبب فتور الموسيقا قلة العناية باختيار الكلمات العذبة ذات الجرس الحسن، فجاء الأسلوب عابسا، تموجاته الصوتية غير مؤتلفة ولا منسجمة كما ينبغى، ولنفس الشاعر وخفتها وظرفها فى اقتباس المعانى والألفاظ، أثر كبير فى تصوير الموسيقا؛ وفرق بين ابن الزيات الوزير المرح الظريف الذى تقلب فى بيئة الكتاب وظرفهم والوزراء وترفهم، وبين أبى العلاء المعرى العالم رهين المحبسين وصاحب النفس المنقبضة المتبرمة بكل مايحيط بها، ولهذا كله وقعت الفرقة بين القطعتين مع أنهما من بحر واحد.

وأسمعك من النثر قطعتين إحداهما أقرب إلى الفطرة والثانية غارقة فى الصناعة، وكلاهما يفيض عذوبة وموسيقا: فالأولى من خطبة لداود بن على ابن عبد الله بن العباس حيث يقول:

« أيها الناس : الآن أقشعت حنادس الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى منزعه ، ورجع الحق إلى نصابه : فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم .

أيها الناس : إنا والله ماخرجنا فى طلب هذا الأمر لكثر لجينا ولاعقيانا ، ولانحفر نهرا ولا نبنى قصرا ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبنى عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم . . . »

والثانية لزعيم كتاب الصناعة الأستاذ ابن العميد فى خطاب خارج على الدولة يهدده حينا ويتألفه حينا ، فأنصت إليه تر العجب من أسلوبه الرائع حيث يقول :

« لاجرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلا لصدمك وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستيفائك واستصلاحك ، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ، ضنا بالنعمة عندك ، ومنافسة فى الصنيعة لديك ، وتأميلا لفيئتك وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأى ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة إلى رخاء ، وكل غمرة فإلى انجلاء . . . . »

العصفور : إن سرورى هذا اليوم لعظيم بما أهديت إلى من ألوان الحديث الموفق فجزاك الله عنى خير الجزاء ، وإنى لمستودعك الله وعائد إلى أهلى وخلانى وأنا موقر بالطرف القيمة . وكنا إذ ذاك فى وقت الأصيل والليلة المقبلة من الليالى القمرية ، فما هى إلا لمحة البصر حتى اضطرب اضطرابة سريعة ، وقفز من نافذة القطار تاركا وراءه صدى للحن جميل قرت عذوبته فى أذنى وقتا طويلا .

عبد اللطيف المغربى